ابن خلدون

رائد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ

بقلم

دكتور

محمد عبد القادر السيد

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية أصول الدين - بالقاهرة

هذا بحث أقدم فيه علما من أعلام الدراسات الإجتماعيه وفلسفة الحضارة وتفسير التاريخ وفلسفته فى الإسلام ألا وهو :

« عبد الرحمن بن خلدون »

وهو علم فى رأسه نار يعرفه القاصى والدانى بأنه مؤسس الدراسات الاجتماعيه وفلسفة الحضارة والتاريخ .

وقد شهد له المنصفون فى الغرب قبل الشرق ونحن إذ نقدمه علما من أعلام الدراسات الإجتماعيه وفلسفة التاريخ ، إنما نفعل ذلك إسهاما مع إخواننا من الشرق والغرب الذين يكتبون عن أمجـــاد الإسلام وتاريخه الناصع الساطع ، لا التاريخ المظلم .

فالتاريخ الساطع المستنير هو الذى يمثل الإسلام خير تمثيل .

لأن الإسلام : حضارة ، وسلام ، ورخاء ، ورفاهية ، للمسلم ، ولغير المسلم ، وحساب الكل على الله حينما يعودون إلى ربهم .

أما الأحداث المؤسفه فى تاريخ الإسلام إنما هى من فعل بعض المسلمين الذين ينتسبون للإسلام دون أن يبصروا مغزاه ومرماه .

ولا يمثلون الإسلام فى شىء ، بل إنهم أضروا به أبلغ الضرر ، لأن أعداء الإسلام يضربون بهم المثل على السلبيات التى تحدث بين المسلمين ويحسبون ذلك على الإسلام .

والله يعلم ، والمسلمون المستنيرون يعلمون أن الإسلام برىء من كل هؤلاء .

اللهم قيض للإسلام من يدافع عنه ، ويقدمه فى صورة حضارية مستنيره للمسلمين ولغير المسلمين .

والله أسأل أن يعينني ويعين زملائي وإخواني في أنحاء العالم الإسلامي لنخدم الإسلام بالقول والفعل والكتابه إنه نعم المولى ونعم النصير وهو سبحانه السميع المجيب لمن دعاه . اللهم آمين .

وبالله التوفيق .

دكتور

محمد عبد التواب السيد

مدخل

لقد شغل ابن خلدون المفكرين قديما وحديثا شرقا وغربا لما له من باع طويل في العلم والمعرفة ، مما كان له أبلغ الأثر في كل المجتمعات البشرية التي تنشد بلوغ الغايات في العلم والمعرفة .

وإذا كان يقال أن الإنسان ابن بيئته فقد صح ذلك مع فيلسوفنا ابن خلدون .

فقد خضع لمقومات مجتمعه وقيمه وللظروف الإجتماعية والسياسية والعقليه التي حكمت بيئته وعصره ، ولم يستطيع أن يكون بمنجاة منها ، فقد كان لها أبلغ الأثر في تشكيل نفسه وتكوين شخصيته .

وظهر كل ذلك بوضوح في انتاجه الخصب الخالد الذي أثر بدوره تأثيرات خطيرة في تاريخ الفكر الانساني وتطوره ، مما لا تزال مظاهره شاهدة عليها إلى اليوم[1] .

وقد نشأ ابن خلدون في بلاد المغرب والأندلس وقد تفتت الأندلس خاصة بعد الحكم الأموي إلى دويلات صغيره ، ولما لم تكن هناك سلطه مركزيه ، تشد أواصر البلاد وتعمل على وضع حد للأطماع الفردية ، والنزعات الإستقلالية .

ولما كانت هذه الإمارات إنما نشأت في الأصل عن طريق الإستئثار بالسلطه ، فقد زين هذا الوضع لكثير من أرباب الطموح السياسي أن يسعوا إلى السلطه بكل وسيلة ، لا يتورعون من أجل ذلك عن دس الدسائس ، وحبك المؤامرات .

---

(١) ابن خلدون للدكتور / نعمان القاضي : المقدمه

حتى إذا وجدوا الوضع ملائما جاهروا بالعصيان وعمدوا إلى القوة يطلبون السلطه عن طريقها .

وقد كان صاحبنا ابن خلدون أحد هؤلاء ، فقد كان بعيد المطامع ، عظيم الجرأه . كثير المغامره . متفانيا فى سبيل إحراز النفوذ ، والوصول إلى الحكم .

وقد كان له من تاريخ أسرته ، ومآثر جدوده فى السياسة ، وفى القضاء ، ما اعتبره مبرراً لطلب السلطه ولذلك أجاز لنفسه دس الدسائس وحبك المؤامرات كما أشرنا سلفا[1] .

ولكنه فى نهاية الأمر تفرغ للعلم والمعرفه فكتب هذا الإنتاج الخصيب الذى بهر كل المفكرين فى الشرق والغرب كما سنفصله فيما سيأتى من بحث إن شاء الله .

وبالله التوفيق .

---

(١) أعلام الفلسفة العربية : الدكتور/ كمال اليازجى وآخرص ٨٠٧

مولده ونشأته وحياته ومكانته

ابن خلدون هو : عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين ابن خلدون وقد ولد فى الأول من رمضان سنة ٧٣٢ هـ .

وابن خلدون سليل أسرة غنية عربية من حضر موت هاجرت إلى أسبانيا بعد أن شاركت فى الأحداث التى صحبت تأسيس الدولة الإسلامية الأولى وشغل أجداده مناصب عالية بخاصة فى أشبيلية فى حكم الأمويين .

وبعد سقوط هذه الأسرة وبعد الحروب الداخلية التى فرقت مسلمى أسبانيا (الأندلس) هاجرت أسرة ابن خلدون إلى بلاد مراكش أولا ثم إلى بلاد تونس[1] .

ويقول الدكتور عبدالرحمن مرحبا : « هو ولى الدين أبو زيد عبدالرحمن ابن محمد بن خالد بن عثمان بن هانىء بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب ابن الحارث بن وائل بن حجر .

فهو سليل أسرة من أعرق الأصول العربية اليمانية فى حضر موت .

نزح بعض أفرادها إلى الحجاز فى العصور السابقة على الإسلام واشتهر منهم فى صدر الإسلام :

وائل بن حجر الذى تنتهى إليه السلسلة المذكورة وأحد صحابة النبى عليه الصلاة والسلام .

وخالد بن عثمان المعروف بخلدون — الذى دخل الأندلس مع الفتح الإسلامى سنة ٩٢ هـ .

---

(١) الأستاذ جوستون بوتول : ابن خلدون : فلسفته الاجتماعية ترجمة الأستاذ فنيم عبدون ص ٨ .

فاستقر هو وأسرته فى (قرمونه) ثم فى (أشبيلية) وحدث بعد ذلك أن انتقلت تلك الأسرة إلى تونس وفيها أقامت[1] .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه (عبد الرحمن ابن خلدون) :

ويظهر أن ابن خلدون اكتسب كنية أبى زيد من إسم ابنة الأكبر حسب ما جرى عليه عادة العرب فى الكنية وإن كنا لا نعرف عن طريق يقينى أسماء أولاده وأما لقب ولى الدين فقد لقب به بعد توليه وظيفة القضاء فى مصر .

وفى هذا يقول المقريزى فى كتابه (السلوك) :

وفى يوم الإثنين تاسع عشرة جمادى الثانية سنة ٧٨٦ هـ استدعى شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون إلى القلعه وفوض إليه السلطان قضاء المالكيه وخلع عليه ولقب ولى الدين[2] .

وقد عرف والد ابن خلدون عن السياسه وآثر الدرس والعلم ونزع عن طريقة السيف والخدمه إلى طريقه العلم والرباط ، فقرأ وتفقه وكان مقدما فى صناعه العربيه وله بصر بالشعر وفنونه وتوفى سنه ٧٤٩ هـ عن خمسه أبناء[3] .

ويقول الدكتور كمال اليازجى فى كتابه (أعلام الفلسفه العربيه) :

يعود نسب ابن خلدون إلى عرب الجنوب ويتصل نحواً من الاتصال

---

(١) د . عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفه اليونانيه إلى الفلسفه الإسلاميه ص ٧٦٤

(٢) ص ١٢

(٣) السابق ص ٢٢

بأمراء كنده الذين ملكوا على بنى أسد فى نجد وكان آخرهم حجر والد امرؤ القيس الشاعر الجاهلى الأشهر ، نزح جده الأبعد إلى الأندلس فى أواخر القرن التاسع ، قيل جاءها فى حملة من الحملات العسكرية ثم استوطنت ذريته مدينه أشبيليه ، وكان لبعض أفرادها شأن يذكر فى سياسه البلاد .

وفى منتصف القرن الثالث عشر هاجرت أسرة منهم إلى تونس فى من هاجر من العرب إلى أفريقيا على أثر اشتداد حملات الأسبان على الإمارات العربيه ، وفى تونس ولد فيلسوفنا الإجتماعى الكبير وكان ذلك فى أواخر أيار سنه ١٣٤٢ م[1] .

ويقول ابن خلدون عن نسبه : لا أذكر من نسبى إلى خلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عدداً ، لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنه ، فيكونون زهاء عشرين ثلاثة لكل مائة[2] .

ولكن الذى يمكن التأكيد عليه هو النسب العربى لابن خلدون لا لما نعرفه من دقة ابن حزم فى تحرى أنساب العرب فحسب والذى اعتمد عليه ابن خلدون فى سلسله نسبه ، بل لأننا لم نجد أحداً من خصوم ابن خلدون أنفسهم — وما أكثرهم — يطعن فى نسبه العربى الذى كان يحرص ابن خلدون على تسجيله فى معظم ما يكتبه ، ولو كان الشك يحوم حول نسبه فى نظرهم ما ترددوا عن الطعن فيه خاصه وأنه كان بينهم المتمكنون من معرفة الأنساب كالعلامه الحافظ بن حجر العسقلانى ،

---

(١) ص : ٨٠٨

(٢) د : على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون : ص ٢٢

وأنهم لم يألوا جهداً فى ذمه وتجريحه والافتراء عليه ، ولم تسلم من ألسنتهم أية ناحيه من نواحيه العلميه والشخصيه ، حتى أنهم سجلوا فى مؤلفاتهم انتقادهم للزى الذى كان يرتديه ولسكناه على النيل[1] .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى : نشأ بنو خلدون بمدينة قرمونة بالأندلس ، وهى التى استقر بها جدهم خالد بن عثمان ثم نزحوا بعد ذلك إلى أشبيليه .

ولم يكن لبنى خلدون شأن يذكر فى تاريخ الأندلس قبل أواخر القرن الثالث الهجرى .

ثم بدأ نجمهم يسطع فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى ٢٧٤ هـ - ٣٠٠ هـ ، وذلك أنه فى أثناء ولاية هذا الأمير اضطربت بلاد الأندلس بالفتن ، وثار معظم النواحى .

وكانت أشبيليه موطن بنى خلدون فى مقدمه المناطق الثائرة فقد ثار بها أميه ابن عبد الغافر — الذى كان حاكماً عليها من قبل الأمير عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن الأموى — وعبد الله بن الحجاج واشترك معهما فى قيادة هذه الثورة ولدان من حفدة خلدون هما : كريب بن عثمان ابن خلدون . وأخوه خالد وانتهت الثورة بعد عدة مراحل بأن استبد كريب بن خلدون بالأمر . واستقل بإمارة أشبيليه ، ولكن حدثت فى عهده عدة ثورات انتهت بقتله[2] .

ويقول الدكتور جميل صليباً : ذكر ابن خلدون فى ترجمة حياته أن أحد أجداده المسمى خالد بن عثمان رحل إلى الأندلس مع جند اليمن

(١) د . على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ١٩

(٢) السابق : ص ٢٠

فى أوائل القرن الثالث للهجرة وأن اسمه تحول هناك إلى خلدون على عادة أهل الغرب .

وذكر المؤرخ الأندلسى ابن حيان أن بنى خلدون كانوا فى أشبيليه نهاية النباهة : وأن أعلامهم لم يزالوا يتقلبون بين رئاسة سلطانيه ورئاسة علميه ، فبعض أجداد ابن خلدون اشترك فى حكم أشبايه ، وبعضهم تولى الوزارة والقيادة فى تونس وبعضهم آثر العلم والرباط على السيف والخدمة ، أما والده أبو بكر محمد فقد كان مقدما فى صناعة العربية : بصيرا بالشعر وفنونه . يتحاكم إليه أهل الأدب ، ففى هذه الأسرة التى كانت تتمتع بمكانة عالية فى ميدانى العلم والسياسة نشأ ابن خلدون ، وفى كنفها ترعرع حتى ولدت هذه البيئة فى نفسه نزعتين قويتين : إحداهما حب الدرس والعلم والثانية حب الجاه والسياسه[1] .

وقد تميز عصر ابن خلدون الذى عاش فيه بالقلق والاضطراب بعد أن سادت الفوضى والحروب الأهلية بين الممالك الإسلامية فى الأندلس .

وفى هذه الأثناء كان العالم الأوربى فى فجر نهضة جديدة استمرت إلى يومنا وما تزال .... وكان بين وفاة ابن خلدون واستنباط فجر الطباعة قريب من ربع قرن ، غير أن العالم الأوربى آنذاك كان قد قطع علاقاته بالعالم الإسلامى قطعا يكاد يكون تاما بعد ما أخذ عن العرب شيئاً كثيراً من العلوم والصناعات ... وسبب ذلك يعود إلى أن النهضة الأوربية جعلت المفكرين والفلاسفة يرجعون إلى الأصول اللاتينية واليونانية ويستغنون عن وساطة العرب فضلا عما كان للحروب الصليبية الطويلة من أثر فى خلق الجفاء الفكرى بين العالمين ، وقد لعب

(١) د. جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ص ٥٤٣

هذا الظرف التاريخى دوراً كبيراً فى إبقاء ما كتبه ابن خلدون مجهولا لدى الأوربيين حتى بداية الدراسات الاستشراقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يوم عاد علم الاجتماع فأسس ثانيه بمعزل عن مقدمه ابن خلدون[1] .

وقد شهد الأندلس بعض الاستقرار فى عهد المرابطين والموحدين ولكن ذلك لم يلبث أن تلاشى ليعود الوضع إلى نحو ما كان عليه فى عهد ملوك الطوائف ، بل إلى ما هو أسوأ إذ كان ملوك الأسبان قد تمكنوا من إحراز مكاسب إقليميه كثيرة من أمراء العرب فى الأندلس، وكانوا فى العهد الذى تؤرخ فيه ، قد غلبوا بنى عباد على أشبيليه وضموها إلى ملكهم وكان المغرب من أدناه إلى أقصاه إمارات كثيرة متنافرة يحكمها أمراء طوائف تحفزهم الأطماع ، وتمزقهم الخصومات منهم الحفصيون فى تونس ، والمرينيون فى مراكش ، والمهديون فى بجاية وبنو نصر فى غرناطه ، وبنو عبد الواد فى تلمسان[2] .

وابن خلدون من أبناء العربية القلائل الذين ترجموا لأنفسهم منهم الشيخ الرئيس ابن سينا وأبا حامد الغزالى فيما تركه لنا فى النقد ، لكن الأول لم يكمل ترجمته فاستأنف تدوينها تلميذه أبو عبيد الجوزجانى كما عرفها فى حين ا كتفى الثانى بالإجمال وألم — أكثر ما ألم — بالمشاغل الفكرية لا بالتفاصيل التاريخية أما ابن خلدون فقد تحدث عن نفسه بإسهاب وساق الكلام إلى ما يقرب من خاتمة عمره ، وربما كان ذلك من باب الأثره وحب الظهور ، فقد ألحق هذه الترجمة المطولة بكتابه التاريخى المشهور ، كأنما قصد أن يجعلها مسك ختامه

(١) الأستاذ عبده الحلو : ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ص ١٤
(٢) د . كمال اليازجى وآخر : أعلام الفلسفة العربية ص٨٠٧

أو أن يلتمس لاسمه الخلود بإثبات سيرته على هامش مؤلفه الضخم[1] .

وكان جدوده الأدنون من أهل العلم والفضل والمكانة السياسية الرفيعة ، إذ التحقوا بخدمة بنى حفص وهم آنذاك أصحاب تونس ، وكان بيت أبيه بيت علم وأدب ودين ، فنشأ فى جو علمى دينى ، حصل علومه الأولى على والده ثم على كبار علماء تونس ، ونبغ باللغة والأدب ، وطارت له شهرة فى الفقه المالكى الذى كانت عليه أسرته ، وتولى القضاء فيه غير واحد من جدوده[2] .

وبدأ ابن خلدون دراسته بقراءة القرآن وحفظه وتلاوته بالقراءات السبع ، ثم تعلم صناعة العربية على والده ودرس على بعض علماء تونس كثيرا من كتب الفقه والحديث والأدب ، ومما أعانه على إتمام دراسته إستيلاء السلطان أبى الحسن المرينى على تونس سنة ٧٤٨ هـ فقد كان هذا السلطان يقرب العلماء ويلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه فلما قدم على تونس ، أحضر معه جماعة من علماء المغرب ، فاتصل ابن خلدون بهم بوساطة والده ، وقرأ عليهم كثيراً من كتب العلم والأدب .

من هؤلاء العلماء : عبد المهيمن إمام المحدثين والنحاة فى المغرب ، أخذ عنه ابن خلدون سماعا وأجازه الأمهات الست ، وموطأ ابن مالك وكتاب السير لابن اسحاق ، وكتاب ابن الصلاح فى الحديث ومنهم شيخ العلوم العقلية : محمد بن إبراهيم الآبلى قرأ عليه ابن خلدون العلوم الرياضية والمنطق وسائر الفنون الحكمية حتى برز فيها[3] .

(١) السابق ٨٠٦ (٢) السابق ٨٠٨
(٣) د. جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ص ٥٤٣

وكان ابن خلدون راسخ القدم فى علوم الحديث بمختلف أنواعها ، وإن لم يصل فى ذلك إلى الشأن الذى وصل إليه فى العلوم الأخرى ولذلك لم نقل إنه كان إماماً ومجدداً فى هذه العلوم ، وإنما قلنا إنه كان راسخ القدم فيها ، فكان واسع الاطلاع فى كتب الحديث ، وخاصة صحيح مسلم ، والذى كان ولا يزال موضع عناية كبيرة فى بلاد المغرب حيث نشأ ابن خلدون .

وموطأ الإمام مالك بن أنس الذى قام ابن خلدون بتدريسه فى المعاهد العالية بمصر ، وكان كذلك متمكناً كل التمكن من علوم مصطلح الحديث ، ورجال الحديث والنظر فى الأسانيد[1] .

ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحباً عن نشأة ابن خلدون وتربيته : ولم يزل منذ نشأ وناهز مكبا على تحصيل العلم حريصاً على اقتناء الفضائل ، إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره إذ حدث حادثان خطيران عاقاه عن متابعة دراسته ، وكان لهما أثر كبير فى مجرى حياته ، أما أحدهما فحادث الطاعون الجارف الذى انتشر فى سنه ٧٤٩ هـ فى معظم أنحاء العالم شرقيه وغربيه ، وقد كان هذا الطاعون نكبه كبيرة وصفها ابن خلدون بأنها طوت البساط بما فيه .

وكان من كوارثه أن ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخه وهلك أبواه رحمهما الله على حد عبارته وأما الحادث الآخر فهو هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء الجارف من تونس إلى المغرب الأقصى سنه ٧٥٠ هـ فتوقف عن الدراسه

(١) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٦١

وأخذ يتطلع إلى الوظائف العامه[1] .

ولما كانت هذه الأحداث قد جعلت الوسائل غير ميسرة له بتونس لمتابعه دراسته ، والتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل وكما كان فى نيته أن يفعل فقد تغير مجرى حياته ، وأخذ يتطلع إلى تولى الوظائف العامه والسير فى الطريق نفسه الذى سار فيه جده الأول والثانى وكثير من قدامى أسرته[2] .

وكانت حياة ابن خلدون صاخبه مضطربه تفيض بما كان يخوضه من مغامرات ، ويصيبه من كوارث ، ويواجهه من خصومه وحساده من مكايد ومؤامرات .

وأن الوظائف الديوانيه والسياسيه والقضائيه قد استأثرت بمعظم وقته وجهوده فى معظم مراحل حياته فقد نهض فيها وما بلغ العشرين ، وظل يحمل أعباءها إلى أن نيف على السبعين .

فلا يتاح لرجل عاش هذه الحياة أن يصل فى ميادين المعرفه إلى ما وصل إليه ابن خلدون ، ويخلف ما خلفه من آثار ، إلا إذا كان يسبح وحده فى عالم العبقريات[3] .

ودرس ابن خلدون دراسه كاملة فى جامعه تونس وتحدث برضا عما أصابه من نجاح فى دراساته ، كما أبدى عرفانه لأساتذته ، وبخاصه الفيلسوف : الآبلى الذى أسماه « الأستاذ الكبير للعلوم المؤسسة على العقل » .

(١) د. محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفه اليونانيه إلى الفلسفه الإسلاميه ص ٧٦٥

(٢) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٨

(٣) السابق ص ٨

ورغم أنه درس دراسة كاملة بالنسبة للعصر وهى دراسات شملت علوم الدين والشريعة ، والعلوم الطبيعية والفلسفة فإنه أتمها فى وقت مبكر[١] .

وفى عهد (تافراكين) — الذى أستوزره السلطان أبو يحى الحفصى على تونس — تولى ابن خلدون سنة ٧٥١ هـ وظيفة « كتابة العلامة » وهى « وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم .

ويظهر أنها كانت تحتاج إلى شىء من الإنشاء والبلاغة حتى تأتى هذه الديباجة متسقة مع موضوع المخاطبة أو المرسوم ، وكانت تكتب هذه العلامة باسم السلطان[٢] .

ولكن ذلك لم يدم طويلا حيث هزم ابن (تافراكين) أمام جند أبو يزيد حفيد السلطان أبى يحى الحفصى وبدأت متاعب الحط والترحال فى حياة ابن خلدون .

وكان ذهنه المتوقد وتفكيره الخصب ، وملاحظته السديدة ، كان كل ذلك يحمل على التعمق فى تأمل هذه الظاهرات ، ورد الأمور المتشابهة منها بعضها إلى بعض ، والبحث عن أسبابها ، والتمييز بين ما ينجم عنها عرضا وما يترتب عليها عن طريق اللزوم وردها إلى قوانينها العامة فجاءت مقدمته فتحا كبيرا فى عالم البحوث الإجتماعية[٣] .

---

(١) الأستاذ جوستون بوتون : عبد الرحمن بن خلدون وفلسفته الإجتماعية ترجمة الأستاذ نعيم عبدون وآخر ص ٩

(٢) د / على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٤٢

(٣) السابق : ص ٨٠

وقد أقام ابن خلدون فى قلعة سلامة أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها ويقول — ابن خلدون — : وشرعت فى تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذى أهتديت إليه فى تلك الخلوه ، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى إمتحضت زبدتها وتألفت نتائجها[١] .

وقد صفح السلطان أبو العباس عن ابن خلدون وسمح له بالنزول فى بلاده وأكرمه .

يقول ابن خلدون فى ذلك : وافيته بظاهر سوسه فحيا وفادتى ، وبر مقدمى ، وبالغ فى تأنيسى وشاورنى فى مهمات أموره ثم ردنى إلى تونس ، وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المنزل ، والكفايه فى الجرايه والعلوفه ، وجزيل الإحسان فرجعت إلى تونس فى شعبان من السنه ، وآويت إلى كل ظليل من عناية السلطان وحرمته ، وبعثت عن الأهل والولد وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمه وألقيت عصا التسيار[٢] .

وقد صحب ابن خلدون السلطان أبى العباس فى حملة حربية ، ولم تكن هذه المصاحبه باختيار ابن خلدون ولا عن طيب خاطر منه وإنما كانت لتلبية أمر السلطان لمجرد مجاملته ، لأن ابن خلدون كان قد كره حينئذ شئون السياسة والحرب ، وازمع التفرغ للدراسة والبحث .

وقد خشى ابن خلدون أن يعود السلطان إلى إصطحابه فى حملاته والزج به فى هذه الميادين التى أصبح يمقتها ، فاعتزم حينئذ مغادرة تونس ،

---

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٢٣١

(٢) ابن خلدون : التعريف ص ٢٣١

وخطرت له فكرة الحج يتوسل بها عذرا إلى السلطان ، فتضرع إليه أن يخلى سبيله ، ويأذن له فى قضاء الفريضة وما زال به حتى أذن له[1] .

وبدلا من الذهاب إلى الأراضى المقدسة وجد سفينه بالمرسى ذاهبة إلى الإسكندرية فركبها ومنها إلى القاهرة حيث بقى فيها ولم يعد إلى المغرب ثانيه .

وقد تنعم ابن خلدون ينعم القصور ولكنه ذاق مرارة الإعتقال والسجن أيضا. حضر حربا إنتهت بانهزام الجماعة التى ينتسب إليها فاضطرته إلى الهيام فى الصحراء مدة من الزمن .

كما أنه تعرض إلى غزوة جردته من كل ما كان له من أمتعة حتى الثياب .

وحين هزم جيش أبى إسحاق وفر ابن خلدون عقب هذا الإنهزام وصل إلى فاس بعد سنتين قضاهما فى الإنتقال من مدينة إلى مدينة ، ومن باديه إلى باديه ، يعاشر القبائل ويتصل بشيوخها ،وحكامها ثم إتصل أخيرا بسلطان المغرب الذى قربه واحتضنه .

وقد أتاحت له ظروف الاستقرار بفاس إلى أن يعود إلى هوايته المفضله من الإطلاع والبحث عن العلم والمعرفة ، فأخذ يتردد من جديد على العلماء والآدباء الذين وفدوا إليها من الأندلس ، ومن تونس وغيرها من بلاد المغرب ، وراح يتنقل بين المكتبات التى زخرت بكثير من الكتب فى شتى العلوم والفنون ، واعتبرت لذلك من أغنى المكتبات الإسلامية .

---

(١) د / على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٨٨

وقد إستطاع أن يضيف إلى معلوماته معلومات جديدة ، وأن يوسع مداركه كما أنه جمع بذلك بين العلم ووظائف الدوله ويقول فى ذلك :

وعكفت على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخه من أهل المغرب ، وأهل الأندلس الوافدين فى عرض السفارة ، وحصلت الإستفادة منهم على السفارة ، وحصلت من الإستفادة منهم على البغيه .

وقد توزع نشاط ابن خلدون السياسى بين دورين هامين متعارضين : أحدهما : الإشتراك فى المكايد السياسية والثانى السفارة السياسية بين الإمارات والدول أما المكايد والمؤامرات فقد كانت وليدة الأوضاع المضطربه والخصومات الشديدة المتواصلة .

مما زين للنفوس الطامحه التشوف إلى السلطه .

وقد حاك ابن خلدون غير واحدة من تلك المؤامرات منها الدس على سيدة أمير تونس ، وتسهيل مهمة خصمه أمير مراكش فى حملته على تونس ، وفراره إلى فاس عاصمة مراكش بعد فشل الحمله والتحاقه بالبلاط المراكشى سنة ١٣٥٦ م .

ومنها تآمره على سلطان فاس لحساب حاكم بجايه الذى وعد بتوليته الوزارة ، وقضاء عامين فى السجن على أثر افتضاح أمره سنة ١٣٥٧ ، سنة ١٣٥٨ م .

ومنها مراسلة سلطان تلمسان وهو فى خدمة ملك قسنطينه وتحريضه عليه سنة ١٣٦٥ م .

ومنها بعد التحاقه بسلطان تلمسان الدس على سيده لمصلحة سلطان مراكش سنة ١٣٦٦ م .

وهكذا كان شأنه كلما بدا له وجه الظفر فى جانب أمير التمس عنده الحظوه، دون أن يتحرج من خيانة الأمير الذى هو فى خدمته وذلك تحقيقا لأطماعه التى لم تقف عند حد .

ومع أنه لم يوفق مره فى عمل من أعمال الدس فإنه لم يتعظ بفشله، ولم يقنط من وسائله ، وقد عرف عنه أنه ما كان يقصد بلداً إلا نشأت فيه القلاقل حتى تنكر أمراء المغرب له ونبا به المقام هنالك فلجأ إلى مصر[1] .

ويضيف الدكتور على عبد الواحد وافى فى تصوير هذه النزعة عند ابن خلدون قوله :

وقد قويت حينئذ لدى ابن خلدون نزعة ذميمة يصرح هو نفسه بتصويرها ، ولا يحاول إخفاءها وإن كان يلتمس لها المعاذير والمبررات وهى نزعة انتهاز الفرص بأية وسيلة ، وتدبير الوصول إلى المقاصد من أى طريق ، فكان لا يضيره فى سبيل الوصول إلى منافعه وغاياته الخاصة ، أو فى سبيل اتقاء ضرر متوقع ، أن يسىء إلى من أحسنوا إليه ، ويتآمر ضد من غمروه بفضلهم ، ويتنكر لمن قدموا له المعروف ، وظلت هذه النزعة رائدة فى مغامراته السياسية وعلاقاته بالملوك والأمراء والعظماء منذ صلته بوظائف الدولة حتى مماته[2] .

ولقد لاقى ابن خلدون فى تونس الحفاوة والتكريم وانصرف إلى مزاولة التدريس ومراجعة المصادر لإتمام كتابه وقد أتم تأليفه فى أربع سنوات وأهدى نسخة منه إلى السلطان فؤاد هذا من تقديمه وتقديره

(١) د . كمال اليازجى وآخر : أعلام الفلسفة العربية ص ٨٠٩

(٢) د . على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون : ص ٤٦

على الرغم من الوشايات والسعايات وعندما بلغ الخمسين من العمر استأذن السلطان لقضاء فريضة الحج فأذن له بذلك فانتقل إلى الإسكندرية ويبدو أن أسباب الرحلة إلى مكة لم تتهيأ له ، فانتقل من الإسكندرية إلى القاهرة وجلس إلى التدريس فى الجامع الأزهر وعزم على الاستقرار فى مصر ، فأرسل فى طلب عائلته فسافرت إليه من تونس بحرا ، ولكن السفينة التى كانت تقلها غرقت فلم يتيسر الإلتقاء بالأهل والأولاد[1] .

وفى ديباجة كتاب العبر يقول ابن خلدون :

فأنشأت فى التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا ، وفصلته فى الأخبار والإعتبار بابا بابا ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا وبينته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب فى هذه الأعصار ، وملأوا أكناف النواحى منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ، ومن سلف لهم من الملوك والأنصار ، وهما العرب والبربر إذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما ولها فيه على الأحقاب مثواهما ، حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما ، ولا يعرف أهله من الآدميين سواهما .

فهذبت مناحيه تهذيبا ، وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا .

وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا .

واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا .

وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الإجتماع الإنسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك

(١) الأستاذ عبده الحلو : ابن خلدون ص ٢٠

كيف دخل أهل الدول من أبوابها . حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك[1] .

ولم تكن المعارف التى اشتمل عليها كتاب ابن خلدون (العبر) قد استقاها من الدروس والكتب وحدها وإنما استقاها من روافد الحياة على تعددها وتنوع إتجاهاتها واختلاف مجاريها وكان جل عنايته بالتاريخ يستطلع أخباره وآثاره ويحلل ظواهره ، ويستشف أحداثه ، ومفاجآته ، ويتخذ من ذلك أداة يعالج بها واقع عصره ، ويعتمدها فى التماس مطامعه[2] .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩ ط دار الشعب .

(٢) د . كمال اليازجى وآخر : أعلام الفلسفة العربية ص ٨١٠

فلسفة ابن خلدون

الاجتماع وضرورته للإنسان وإنشاء ابن خلدون لهذا العلم :

يرى ابن خلدون أن الاجتماع الإنسانى ضرورى ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم :

الإنسان مدنى بالطبع أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى إصطلاحهم وهو معنى العمران .

وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء .

وهداه إلى التماسه بالفطرة ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله .

إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء . غير موفية له بمادة حياته منه . ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن ، والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعدده ، من حداد ، ونجار ، وفاخورى ، وهب أنه يأكله حبا من غير علاج .

فهو أيضا يحتاج فى تحصيله أيضا حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل .

ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير .

ويستحيل أن تفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد . فلابد من

اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة أكثر منهم بأضعاف (١) .

وكذلك يحتاج الناس إلى الإجتماع لرد عدوان والدفاع عن النفس يقول ابن خلدون عن ذلك فى مقدمته :

وكذلك يحتاج كل واحد من الناس أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ، لأن الله سبحانه لما ركب الطباع فى الحيوانات كلها . وقسم القدرة بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان .

فقدرة الفرس أعظم مثلا بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار ، والثور ، وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته ، ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان ، جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته مايصل إليه من عادية غيره ،

وجعل للإنسان عوضا عن ذلك كله الفكر ، واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر .

والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع ، مثلا الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة .. إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس فى كتاب منافع الأعضاء . فالواحد من البشر لاتقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم ، سيما المفترسه فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفى قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها ، فلا بد فى ذلك كله من

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩ ط دار الشعب .

التعاون عليه بأبناء جنسه ، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء فى حياته . ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته .

ويبطل نوع البشر .

وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعه وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه .

فإذن هذا الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم (١) .

وكان ابن خلدون يعرف أنه قد أتى بجديد فى هذا المضمار الذى سلكه والآراء التى بثها فى كتبه خاصة كتابه (العبر) ومقدمته ولذلك تجده يقول :

واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة . . . وكان يمكن أن أعتبر نفسه المنشىء الحقيقى لعلم جديد حاول به تجاوز التعليم التقليدى للتاريخ والسمو إلى دراسة ما نطاق عليه اليوم القوانين التى تحكم المجتمعات الإنسانية ، وتطور الدول ، ولقد ساء ابن خلدون أن يرى كتب التاريخ حتى عصره لا تشمل سوى سجلات طويلة لأسماء الملوك والأسرات ، وقوائم لا نهاية لها لأحداث ثانوية . ولقد أراد بعقده للمقارنات وأختباره للمتشابهات ان يصل إلى

(١) ابن خلدون : المقدمة : ص ٣٩ ط دار الشعب .

تحديد الأسباب الحقيقية للأحداث والعلاقات الحتمية بين مختلف أنواع الوقائع التاريخية[١].

وقد اعترف الغربيون المنصفون بأن ابن خلدون هو منشىء علم الاجتماع فيقول أحدهم :

لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت وقبل (فيكو) الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول إجتماعى أوربى ، جاء مسلم تقى فدرس الظواهر الإجتماعية بعقل متزن وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الاجتماع[٢] :

ويقول آخر : فى الحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه نحن اليوم : علم الاجتماع .

ولقد أسف غير مفكر معاصر لبقاء المقدمه مغمورة حتى بعد تأسيس علم الإجتماع مرة ثانية فى القرن التاسع عشر حتى أن (شميدت) يقول :

إن المفكرين الذى وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد لو كانوا اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينه فاستعانوا بالحقائق التى كان قد أكتشفها والطرائق التى كان قد أوجدها ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلا[٣] .

---

(١) الأستاذ جوستون بوتول : ابن خلدون وفلسفته الإجتماعية ص ٣٣ .

(٢) السابق .

(٣) الأستاذ عبده الحلو : ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ص ١٤٩

ويقول الأستاذ عبده الحلو فى كتابه :

« ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع » أننا لا نجد صنوا لابن خلدون حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مع العلم أن النظريات الاجتماعيه التى نشأت فى تلك الحقبة كثيره جدا متباينه كل التباين ، وقد قضى العلماء شطراً كبيراً من هذا القرن فى جدال حول طبيعة الحادثه الاجتماعيه ، وكيفية دراستها .

فانقسموا بين النظريات الآليه والعضويه والبيولوجية ، والتطوريه ، والنفسيه الاجتماعية ولكن العلماء المعاصرين أهملوا بوجه عام هذه النظريات الضيقه ، وصاروا أميل إلى اعتبارها نظريات جزئيه يمكن أن يتم بعضها بعضا ، وربما كانت النظره الاجتماعية فى علم الاجتماع التى تزعمها أميل دور كايم ١٨٥٨ — ١٩١٧ هى التى امتصت التيارات الأخرى وغلبت عليها ...

ولسنا نغالى إذا قلنا أن مقدمه ابن خلدون احتوت على بذور هامه لمختلف هذه النظريات مع غلبة النظره الاجتماعيه عليها ، فيكون ابن خلدون من حيث النهج الذى اتبعه فى دراسة الحادثات الاجتماعيه لا من حيث النتائج التى وصل إليها أقرب إلى علم الاجتماع المعاصر من علماء القرن التاسع عشر أنفسهم[١] .

ولم يكن التاريخ علما له أصوله وقواعده واستنتاجاته فلما جاء ابن خلدون لم يشأ أن ينظر إلى التاريخ كروايه تدون بل كعلم يستحق الدرس ، وقد أراد أن يكتب التاريخ على أسس علميه منهجيه تعتمد على الشرح والتحليل ، فدرس أحداثه وظواهره يحرد منها قوانين عامة

---

(١) السابق ص ١٦٢

ونواميس مطرده ، فمناط عظمة ابن خلدون ومعقد الطرافه فيه أنه لم يتقدمه باحث عربى أو يونانى قدمت فى ذهنه هذه الفكره الجريئه : تجريد القوانين والنواميس العامه المسئوله عن سير التاريخ ، فلا هيرودوت ، ولا أفلاطون ولا أرسطو كانوا أندادا له فى هذا الباب وجميع من عداهم باستثناء (أنو كيد يدس) إلى حد ما لا يستحقون أن يذكروا معه[1] .

وهكذا نجد أن التاريخ بعد ابن خلدون لم يعد ينحصر فى تدوين الوقائع ، بل لقد وجه الأذهان إلى ضرورة تعليلها تعليلا علميا منهجيا يعتمد على الملاحظه والمقارنه ودراسة البيئة وأصول العاده ، وقواعد السياسه ، وطبيعة العمران فالتاريخ ليس حوادث مفككة تأتى فرادى وإنما هو ترابط واتصال وتشابك فى الزمان والمكان لا حد له فقد كان ابن خلدون يحرص دائما على ربط حوادث جرى المؤرخون قبله على عادة فصلها بعضها عن بعض والنظر إليها مفككة منعزله عن سياقها وظروفها وملابساتها ولذلك فإن الأخبار كما يقول ابن خلدون إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العاده وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها العثور ، ومزلة القدم والحيده عن جادة الصدق[2] .

وقد حدد ابن خلدون فى دقة وبراعه مايجب أن يكون عليه المؤرخ من علم وثقافه فقال فى مقدمته :

(١) د. محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفه اليونانية إلى الفلسفه الاسلاميه ص ٧٨٣

(٢) السابق ص ٧٨٤

يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسه وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع ، والأعصار فى السير والأخلاق ، والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطه بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادى ظهورها وأسباب حدوثها ، ودواعى كونها ، وأحوال القائمين فيها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث ، واقفا على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا وإلا زيفه واستغنى عنه[1] .

ابن خلدون والفلسفه :

لم يكن ابن خلدون عالما اجتماعيا ومؤرخا فحسب بل كان فضلا عن ذلك فيلسوف نظر فى العلوم جميعها فأتقنها وعقد لها فى مقدمته فصولا وافيه شرح أغراضها وبين فوائدها ومضارها ونبه إلى حدودها أو بطلانها[2] .

ولا بد فى تحديد موقف ابن خلدون إزاء الفلسفة من البدء بتعريف معناها فاذا كان المقصود بالفلسفة تلك التى نجدها عند افلاطون وأرسطو والفارابى وابن سينا وابن رشد ، فان موقف ابن خلدون إزاءها موقف سلبى ، وإذا كان المقصود بها تلك التى نعرفها بقولنا : إنها النظر

(١) ابن خلدون المقدمه

(٢) الاستاذ عبده الحلو : ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ص ١٤٤

فى الوجود لتفسيره وتحديد مكان الانسان فيه ، كان موقف ابن خلدون اذاءها موقفا ايجابيا ، نحن لا نملك فى ضوء هذا التعريف الثانى للفلسفه إلا أن نقول : إن ابن خلدون كان فيلسوفا من الطراز الأول ، ولو لم يكن لابن خلدون من الأصالة إلا نظرته العامة إلى الكون والمجتمع ، وكشفه عن علم جديد اطلق عليه اسم العمران لكفى بذلك دليلا على فلسفته[1] .

وكذلك له موقف يشبه موقف الإمام الغزالى الذى تأثر ابن خلدون به كثيراً فالغزالى فى نظره فقيه وأصولى ومتكلم وفيلسوف ، وهو يشيد به ويذكره بكثير من التجلة والاحترام ، ويحذو حذوه فى نقد الفلسفه ، وتوجيه المطاعن إلى أصحابها ، رغم أنه كان ملما بها ، ومستبحراً فى علومها . . . إن نقد ابن خلدون مغاير لنقد الغزالى بعض المغايرة ، فالمفكر ان يصدر ان من مقدمات مختلفه أحيانا ، ولكنهما على كل حال يصلان إلى نتائج واحدة أو على الاقل متقاربه[2] .

ويجب أن لا نتردد فى أن نعد ابن خلدون بين أصحاب المنهج العلمى ، فالنزعة التى يصطبغ بها تفكيره هى النزعة التجريبية ، وتحت تأثير هذه النزعة ألف فى التاريخ وعلم العمران ، كما أرخ للعلوم فى تلك الصفحات الرائعة التى تزخر بها المقدمة ، وتظهر هذه النزعة أيضا فى الفصل الذى عقده لابطال الفلسفة وفساد منتحلها[3] .

(١) أ. د. جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ص ٦٣٤

(٢) د. محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص ٧٧٥

(٣) السابق ص٧٧٦

فابن خلدون يقول فى هذا الفصل : « إن قوماً من عقلاء النوع الإنسانى زعموا أن الوجود كله الحسى منه وما وراء الحسى ، تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية ، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع ، فانها بعض مدارك العقل ، وهؤلاء يسمون فلاسفة ، جمع فيلسوف ، وهو باللسان اليونانى محب الحكمة ، فبحثوا عن ذلك وشهروا له ، وحوموا على إصابة الغرض منه ، ووضعوا قانوناً يهتدى به العقل فى نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ، ومحصل ذلك أن النظر الذى يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن فى المعانى المنتزعة من الموجودات الشخصية .. إلى أن يقول وحاصل مداركهم فى الوجود على الجملة ، وما آلت إليه ، وهو الذى فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولا على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ، ثم ترقى إدراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات ، ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ، ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية ، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان ... ويزعمون أن السعادة فى إدراك الوجود على هذا النحو ، من القضاء على تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل ، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع .

لتمييز الإنسان بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره ، وميله إلى المحمود منها ، واجتنابه للمذموم بفطرته ، وأن ذلك إذا حصل للنفس ، حصلت لها البهجة واللذة ، وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة ... إلى خبط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم[1] .

(١) مقدمة ابن خلدون : الباب السادس .

طريقة استقرائيه تجريبية تحاول إستخراج القوانين العامة من ملاحظة الظواهر الحسية نعم إن بعض المسائل التى تناولها بالبحث لم تفسر تفسيراً كافياً كمسألة الوحى والرؤيا ، والخوارق وحقيقة النبوة والصفات الإلهية.

إلا أنه لم يسلك فى تفسير هذه الظواهر منهجاً نظرياً إلا لاعتقاده أن الإنسان لا يستطيع بطبيعة فكرة أن يدرك الحقائق الإيمانية دون الاستناد إلى الخبر من الواضع الشرعى . فموضوع الدين عنده معرفة الحقائق التى أوحى بها الله أما موضوع العلم فهو معرفة الحقائق التى يستطيع الإنسان أن يحصلها بعقله الطبيعى دون معونة خارجية وعلم العمران كغيره من العلوم الحكمية يدخل فى عداد الأمور التى يستطيع بها الإنسان أن يدركها بطبيعة فكره[1] .

والذى يفحص النصوص التى جاءت بكتاب العبر يدرك دون عناء أن جزءاً من الكتاب ألف قبل هجرته إلى مصر إذ يقول :

وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكنتى منه فى هذا القطر المغربى لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحواله وأجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ماسواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه .

والجزء الآخر كتب بعد رحلته إلى المشرق إذ يقول : ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء الفرض والسنة فى مطافه ومزاوره والوقوف على آثاره فى دواوينه وأسفاره ، فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار واتبعت بها ما كتبته فى تلك الأسطار ، وأدرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحى .

(١) د . جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ص ٥٥٩ .

وملوك الأمصار والضواحى سالكا سبيل الاختصار والتلخيص ، مقتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليفة استيعاباً وأذلل من الحكم النافرة صعاباً وأعطى لحوادث الدول علالا وأسباباً فأصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً[1] .

ويذكر ابن خلدون أنه كان سباقا فى تأليف هذا الكتاب ولم يقلد غيره إذ يقول :

ولم أترك شيئاً فى أولية الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحول فى القرون الخالية والملل ، وما يعرض فى العمران من دوله وملله ومدنيه وحله ، وعزه وذله ، وكثره وقله ، وعلم وصناعة وكسب وإضاعة وأحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر وواقع ومنتظر إلا واستوعبت جمله وأوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم المغربية والحكم المحجوبة القريبة[2] .

ويستدرك ابن خلدون لاحتمال وجود بعض التقصير فيقول :

وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور معترف بالعجز عن المضاء فى مثل هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء فى النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء فى البضاعة بين أهل العلم مرجاة والإعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاه والله

(١) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٨١

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠

طريقة استقرائيه تجريبية تحاول إستخراج القوانين العامة من ملاحظة الظواهر الحسية نعم إن بعض المسائل التى تناولها بالبحث لم تفسر تفسيراً كافياً كمسألة الوحى والرؤيا ، والخوارق وحقيقة النبوة والصفات الإلهية.

إلا أنه لم يسلك فى تفسير هذه الظواهر منهجاً نظرياً إلا لاعتقاده أن الإنسان لا يستطيع بطبيعة فكرة أن يدرك الحقائق الإيمانية دون الاستناد إلى الخبر من الواضع الشرعى . فموضوع الدين عنده معرفة الحقائق التى أوحى بها الله أما موضوع العلم فهو معرفة الحقائق التى يستطيع الإنسان أن يحصلها بعقله الطبيعى دون معونة خارجية وعلم العمران كغيره من العلوم الحكمية يدخل فى عداد الأمور التى يستطيع بها الإنسان أن يدركها بطبيعة فكره[1] .

والذى يفحص النصوص التى جاءت بكتاب العبر يدرك دون عناء أن جزءاً من الكتاب ألف قبل هجرته إلى مصر إذ يقول :

وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكنتى منه فى هذا القطر المغربى لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحواله وأجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ماسواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه .

والجزء الآخر كتب بعد رحلته إلى المشرق إذ يقول : ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء الفرض والسنة فى مطافه ومزاوره والوقوف على آثاره فى دواوينه وأسفاره ، فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار واتبعت بها ما كتبته فى تلك الأسطار ، وأدرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحى .

(١) د . جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ص ٥٥٩ .

وملوك الأمصار والضواحى سالكا سبيل الاختصار والتلخيص ، مقتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليفة استيعاباً وأذلل من الحكم النافرة صعاباً وأعطى لحوادث الدول علالا وأسباباً فأصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً[1] .

ويذكر ابن خلدون أنه كان سباقا فى تأليف هذا الكتاب ولم يقلد غيره إذ يقول :

ولم أترك شيئاً فى أولية الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحول فى القرون الخالية والملل ، وما يعرض فى العمران من دوله وملله ومدنيه وحله ، وعزه وذله ، وكثره وقله ، وعلم وصناعة وكسب وإضاعة وأحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر وواقع ومنتظر إلا واستوعبت جمله وأوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم المغربية والحكم المحجوبة القريبة[2] .

ويستدرك ابن خلدون لاحتمال وجود بعض التقصير فيقول :

وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور معترف بالعجز عن المضاء فى مثل هذا القضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء فى النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء فى البضاعة بين أهل العلم مرجاة والإعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاه والله

(١) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٨١

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠

أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل[1] .

وقد حاز كتاب : (المقدمة) على تقدير كل العلماء والمفكرين فى الشرق والغرب يقول الأستاذ ساطع الحصرى: إن مقدمة ابن خلدون هى من نوع المؤلفات التى عرفت فى أوربا باسم (فلسفة التاريخ) فى القرن الثامن عشر وباسم (علم التاريخ) أو (المدخل إلى التاريخ) فى القرن التاسع عشر .

فى الواقع أنها تتضمن فى الوقت نفسه آراء ومباحث ونظريات إجتماعية هامة ، فيجب اعتبارها من هذه الوجهة من نوع المؤلفات المتعلقة بالفلسفة الإجتماعية وبعلم الاجتماع أيضاً ، غير أنه يجب ألا يغوب عن البال بأنها تتألف فى حقيقة الأمر من المقدمة والكتاب الأول من سفر تاريخى كبير .

وترمى قبل كل شىء إلى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار عند تدوين التاريخ وتسعى إلى إيجاد معيار صحيح يتحرى المؤرخون طريق الصدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع كما صرح المؤلف نفسه حينما عقب على العبارة الآنفة الذكر بقوله : هذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا .

ولهذا السبب يجب أن ينظر إلى مقدمة ابن خلدون قبل كل شىء كمؤلف فى فلسفة التاريخ ، فيجب أن نقارنها بأمثالها من المؤلفات التى حامت حول فلسفة التاريخ قبل أن نقدم على مقارنتها بالكتب الباحثة عن الفلسفة الاجتماعية أو علم التاريخ .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠

ويقول : (روبرت فلنت) فى كتاب له بعنوان : (تاريخ فلسفة التاريخ) أشار فيه إلى ابن خلدون ومجده بقوله :

من جهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربى باسم من ألمع الأسماء — يقصد ابن خلدون — فلا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى يستطيع أن يقدم اسما يضاهى فى لمعانه ذلك الاسم .

وبالله التوفيـــق

د. محمد عبد التواب السيد

المراجع الرئيسية

١ — مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون كتاب الشعب .

٢ — من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية د. محمد عبد الرحمن مرحبا — منشورات عويدان مكتبة الفكر الجامعى — بيروت سنة ١٩٧٠ م .

٣ — تاريخ الفلسفة العربية . د . جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت سنة ١٩٧٠ م .

٤ — أعلام الفلسفة العربية — د. كمال اليازجى والدكتور أنطون غطاس كرم — دار المكشوف — بيروت سنه ١٩٦٧ م .

٥ — عبد الرحمن بن خلدون د. على عبد الواحد وافى — سلسلة أعلام العرب وزارة الثقافة والإرشاد — العدد ٤ سنة ١٩٦٢ م .

٦ — ابن خلدون : الأستاذ نعمان القاضى ـ سلسلة كتب إسلامية ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ١٠٧ سنة ١٩٧٠ م .

٧ — ابن خلدون : فلسفته الإجتماعية : الأستاذ جوستون بوتول — ترجمة الأستاذ : غنيم عبدون — مراجعة الأستاذ : مصطفى كامل فوده ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سنة ١٩٦٤ م .